

## ياسر عرفات وجنون الجغرافيا

يُقرأ الكتاب لثلاثة: لفائدة موضوعه، أو لأهمية كاتبه، أو لتشويقه. وهذا الكتاب الذي بين ايدينا يُقرأ للأسباب الثلاثة آنفة الذكر جميعا. فهو اولا كتاب مفيد لان موضوعه ياسر عرفات الذي جعل كل الناس، وليس العرب ومنهم الفلسطينيون فقط يهتمون به ويتسقطون اخباره، سواء كان ذلك في حياته او بعد مماته. وقد حدثني السفير الكوي في بلغاريا عام ١٩٨٥ بأن الجريدة الكوبية الاشهر "غراما" اجرت عام ١٩٨٢ استطلاعاً بين القراء الكوبيين: "من ترشح ليكون شخصية العالم هذا العام؟". وقد جاءت النتائج كما يلي: الاول كاسترو (الزعيم الكوبي)، والثاني عرفات، والثالث بريجنيف (الزعيم السوفييتي). وحينما شارك ياسر عرفات بجنازة بيرلنغوير (امين عام الحزب الشيوعي الايطالي) عام ١٩٨٤، ورغم حضور العديد من الشخصيات العالمية ومنهم غوربتشوف (النجم الصاعد في الاتحاد السوفييتي والذي سيصبح بعد اشهر الامين العام)، في تلك المناسبة علق احد مذيعي التلفزيون الايطالي، وهو يُعرّف برؤساء الوفود وهم يصعدون الى المنصة، قال هذا المذيع عنما ظهر ياسر عرفات: وهذا ياسر عرفات المعروف للجميع. ولعل لباسه المميز يجعله مميزا للجميع.

ولعل العبارة التي وصف بها نبيل ياسر عرفات دقيقة إلى درجة جعل الناشر يضعها على الغلاف الخارجي للكتاب، والتي تقول: "كانت القيادة والسيطرة بالجملة وبالتفصيل هي الفكرة الثابتة في عقله وروحه وسلوكه. فهو قائد الفريق، وهو اللاعب، وهو المدرب، وهو الحكم، ومقرر النتيجة. وكل من معه وحوله كانوا بالنسبة له جمهورا يلزم للمساعدة او التشجيع، واحيانا للمباهاة بهم امام الآخرين.

وهذا ينقلنا للسبب الثاني الذي يدفع لقراءة هذا الكتاب، وهو المؤلف. مؤلف الكتاب هو نبيل عمرو الذي كان معه وحوله، وكان وما زال يقر لعرفات بالصفات آنفة الذكر، ويرضى بسرور ان يلعب الدور الذي يرتضيه له عرفات، ولكنه يكاد يكون الوحيد الذي يعترف، ويعلن هذه الحالة ولا يخجل منها.

سأله ذات مرة صحفي قائلاً: متى عرفت ياسر عرفات يا نبيل؟

اجاب نبيل هذا سؤال ساذج وغير مهم، فأنا اعرف ياسر عرفات منذ ولدتني امي. ولكن السؤال هو متى عرفني ياسر عرفات؟

ضحك الصحفي وصحح السؤال وقال: متى عرفك ياسر عرفات يا نبيل؟

كإجابة على السؤال، سرد نبيل قصة استدعاء ياسر عرفات له ليعاقبه على خطأ ارتكبه. وحين احضروه لعرفات وقالوا له هذا نبيل يا اخ ابوعمار. صرّخ عليه لانه كتب له مباشرة متخطيا المراتب الاعلى. وعلل نبيل موقفه، ولم يُظهر عرفات اقتناعه بما قال نبيل، ولكن حين استأذن نبيل للإنصراف اجابه ابوعمار باللهجة المصرية "إترزي!!" واذاف نبيل للصحفي: واترزي وما زلت حتى الآن. ومن الجدير بالذكر ان نبيل يروي هذا المقطع من علاقته بياسر عرفات مع تغييرات هي من مقتضيات الفرق بين الحديث الشفهي والكتابة الادبية (ص ٤٥-٤٧) مسترجعا توضيح ماجد ابو شرار "ان هذه طريقة ياسر عرفات بترويض الاشخاص". ونبيل في هذا الكتاب لا يؤرخ لياسر عرفات، ولا يقيّمه، وانما هذه "الانطباعات التي تولدت لديه من خلال معاشته عن قرب" كمايقول نبيل في تمهيده وتوضيحه (ص ١٣) فلا يقص الا ما رأى او سمع مباشرة او كان طرفا فيه.

لقد قرأتُ هذا الكتاب ثلاث مرات: مرة وهو مخطوطة، والثانية بعد صدوره، والثالثة كي اكتب هذه القراءة له. وحينما طلب مني بعض الاصدقاء أن اصنّف الكتاب قلت هو كتاب شيق ومفيد، ويمكنني ان اقترح عنوانا اضافيا للكتاب "ايامي معه"، فهو عبارة عن يوميات نبيل عمرو مع ياسر عرفات في جنون الجغرافيا.

ورغم ان نبيل لا يغوص بالتفصيلات الا التي كان شاهدا عليها، الا انه غطى كافة محطات ياسر عرفات، وخاصة ذات العلاقة بجنون الجغرافيا ليكون امينا مع عنوان كتابه. وجنون الجغرافيا يكمن في كل من الاردن وسوريا والعراق ومصر ولبنان.

ونبدأ من مصر عبد الناصر، حيث يقول نبيل "حتى جمال عبد الناصر، وهو الاكبر والاكثر نفوذاً، دفع من كبريائه وطول قامته ثمنا مكن ياسر عرفات صاحب الاحلام الكبيرة، والقوة المادية شديدة التواضع من ان يطرح نفسه ووعوده واحلامه مخرجا معنويا من مأزق آلت اليه الامة، ومن هزيمة

تمت في عهد الكبار" (ص ٦٨).

اما السعودية، والتي كانت "في حسابات عرفات، كنزا متعدد المزايا... فقد كان يحرج عرفات تلك الاراء التي تنطلق من فتح، وتتناول السعودية بالنقد من منطلقات ايدلوجية يفرزها ادعاء الانتماء للييسار الدولي" (ص ٩٣). ويؤكد نبيل انه "وفق مبدأ التعايش مع الحذر كانت السعودية ومصر الطرفين الثابتين في تحالف عرفات من اجل البقاء" (ص ٧٦).

والقى نبيل الضوء على علاقة عرفات بالتوأمين "اللدودين": سلطة البعث السوري وسلطة البعث العراقي. ويكاد لا يكون رئيسا البلدين هما اكثر الرؤساء احتكاكا بياسر عرفات. كان ذلك الاحتكاك جارحا احيانا، ومداويا احيانا اخرى، ومهماً دائماً. اما في حالة وئام البعثين، "فإن الجغرافيا السورية، والنفط العراقي يضغطان على روح عرفات، وحساباته، ويضيقان مساحة الحركة التي يحتاجها، ويهددان قدرته على ان يظل الزعيم القوي، والفعال، والمستقل للفلسطينيين" (ص ٦١). وحينما يركز على صدام حسين يقول صدام حسين هو "عدو الامس، والحليف الاخير" ويلمح نبيل الى ان صدام حسين رأى أن "عرفات راية فلسطينية مقدسية، يجب ان تخفق في بغداد، وليس في طهران" (ص ٢٠٩).

ورغم ان نبيل يقول "كانت كارثة ١٩٦٧ قد كسرت درع الملك حسين، وأطالت رمح عرفات" (ص ٦٧)، الا ان نبيل ظل حريصا على حسن اختيار الفاظه، وتعبيراته عندما يتكلم عن الحسين، فوصفه بأنه الخصم والمنقذ والحليف (ص ١٩٥). ثم يقول "كان الحسين، بفعل اعتناقه لنسبه الذي يوصله الى الرسول الاعظم، والى رأس القبيلة القائدة في التاريخ العربي الاسلامي، قريش، لا يرى ان زعامته محصورة في حدود المملكة الاردنية، ولا يرى دوره محدودا في إطار الحفاظ على الدولة الصغيرة" (ص ١٩٧).

ويزيد نبيل في الصفحة التالية "ها هو الحسين ينقذ عرفات من الموت السياسي حين حسم امر شرعية المجلس الوطني الفلسطيني في دورته السابعة عشرة، حيث وفر الظروف الملائمة لعقده، والقى في افتتاحه كلمة اظهرت دهاء الحسين وجرأته". وظلت تعبيرات نبيل مختارة باحترام شديد عندما يشير الى ايلول الاسود، او الى فك الارتباط

ويختم نبيل هذا الفصل الذي خصه للعلاقة بين عرفات والملك حسين بالقول "انه منذ تلك الايام (انعقاد الدورة السابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في عمان عام ١٩٨٤)، لم تشهد العلاقة بين الرجلين اي توتر على اي مستوى. لقد اطمأن الملك الى ان كيانا شقيقا وصديقا سينشأ في الجوار بما يبعد شبح الوطن البديل او الدولة البديلة. واطمأن عرفات الى ان ما كان يوصف بتهديد الملك

للاستقلال الفلسطيني لم يعد قائماً" (ص ٢٠٤).

خرج عرفات من كنز جغرافية الاردن وجنونها الى سفوح جبل الشيخ وجنون جغرافية لبنان، تلك الجغرافيا التي سُمى نفسه فيها "الرقم الصعب" لانه الرقم المستقل. ولكن القوى الفاعلة اقليميا ودوليا لا تطيق رقما مستقلا في المنطقة، ناهيك عن "رقم صعب". وفي شباط ١٩٧٨ انتصرت الثورة الايرانية، وسقط الشاه حليف اسرائيل الاقوى في المنطقة، فلاح لعرفات نور في آخر النفق، فقال كما قال موسى لاهله "امكتوا اني آنست نارا، لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى" (سورة طه ١٠). ولم يناديه ربه ما تلك بيمينك، إذ اندلعت بعد ذلك بقليل الحرب بين العراق وايران، ورغم جهوده المضنية، فشل عرفات برأب الصدع بينهما فخر عرفات هذا القبس، ولم يستطع ان يستفيد من هذا الجنون الجديد في جغرافية المنطقة، وعاد عرفات ليكون الرقم غير المقبول. فكان الاجتياح الاسرائيلي للبنان. ورغم الصمود الاسطوري، ورغم التضحيات العظيمة، "خرج من بيروت والجنوب، وتشبّت بطرابلس ومخيماتها" (ص ١١٧). وعندما اجتاحت صدام حسين الكويت، وفشل عرفات برأب الصدع بين العراق ودول الخليج، لم يبقى امامه إلا سرايب أوسلو.

وبعد ان خرج عرفات من جنون الجغرافيا ودفتها، اي عندما خرج من طرابلس اضطر ان يمالئ القوى التي لا تقبل "الرقم الصعب"، وقرر ان يقول أن الرقم الصعب ليس "رقما اصما" لا يقسم الا على نفسه، يل رقم مزدوج قابل للقسمة له نصف وثلث وربيع، فاخترق المقاطعة العربية السورية لمصر كامب ديفد وزار حسني مبارك في القاهرة وهو في طريقه من طرابلس الى الحديدة في اليمن. ويسجل نبيل رسوّ باخرة عرفات على رصيف ميناء الحديدة حيث "لم يكن الاستقبال هذه المرة بدفء الاستقبالات السابقة وحيويتها، فقد جاء عرفات سابقا بعد ملحمة بيروت (١٩٨٢).. ووصفت بانها اطول حرب خاضها العرب مع اسرائيل" (ص ١٣٧).

ولان نبيل في كتابه هذا كان يغوص في التفاصيل عندما يكون مشاركا او مشاهدا للحدث، فقد جاء كتابه في كثير من جوانبه وكانه رواية على شكل مذكرات او يوميات. وهناك بعض الروائيين يسجل يومياته كرواية. ورغم ان نبيل عمرو لم يحترف الرواية بعد، فانه كتب هذا الكتاب بلغة ادبية راقية، وبسرود روائي مشوّق، وبذلك نأتي للسبب الثالث الذي يحض على قراءة الكتاب كاملا، الا وهو التشويق. فالعديد من المقاطع يصلح ان يكون قصة قصيرة، وكاملة على ذلك اشير الى حكاية سجن نبيل في مقر ال ١٧، وحكاية تعيينه عضوا في المجلس الثوري، وحكاية حضوره بعد منتصف الليل لمكتب ياسر عرفات للحصول على توقيع على قرارات دون ان يذكر ماهي هذه القرارات، وربما اراد ان يصف طريقة ياسر عرفات باخذ القرارات، وليشير الى موقع نبيل عنده (ص ١٧٣). وحكاية الطفل في الدامور الذي عندما اشتكت امه لياسر عرفات على لحقهم من مصائب، اعترض

الولد على امه لان ياسر عرفات هذا هوسب البلاوي، فصفعه ياسر عرفات ليس لانه يتهمه، بل لان اعتراضه على امه قلة ادب.

وحيثما يستحضر نبيل كلام عرفات معه او مع غيره، كان نبيل يلجأ لاستعمال اللهجة الدارجة على لسان عرفات. وهنا استرجع "المعركة" التي نشبت بين مدرسة طه حسين ومحمود عباس العقاد في ما يخص الحوار في الروايات، حيث كان طه حسين يصر على استعمال اللهجة الدارجة عندما تكون الشخصية في الرواية شعبية، لان ذلك يجعل الشخصية اكثر استقرارا، ولكن العقاد كان يرى ان ذلك ضروري في "السيناريو" عند تحويل الرواية الى فيلم، اما وهي رواية فيجب ان يبقى الحوار باللغة الفصحى.

والذي جعلني استرجع هذه المسألة انني سألت نبيل: لماذا تستعمل اللهجة الدارجة عندما تنقل كلام عرفات، بينما تستعمل اللغة العادية عندما تنقل كلام غيره معه؟  
اجاب نبيل: لان عرفات هو الشخصية المحورية، وهو بطل روايتي، فاريد للقارئ ان يتخيله عندما يقرأ اقواله. اما الآخرون فاريد للقارئ ان يعرف ما قالوه، سواء تخيلهم او لم يتخيلهم!!!

عبد الفتاح القلقيلي